الإطار المعرفي للسنن الإلهية في القرآن الكريم

د. إبراهيم آدم أحمد شوقار*

مقدمة

هذا البحث ، دراسة في الإطار المعرفي للسنن الإلهية في القرآن الكريم ، حيث تمّ عرض خصائص المعرفة في التصور القرآني مجملاً ، من خلال مستويين:

المستوى الأول: يبين وضعية السُّنن الإلهية في التصور المعرفي القرآني عامة ويحدد طبيعتها ، وذلك من خلال بيان كيفية حصول المعرفة للإنسان في هذا التصور ، وقد تبيّن أنّ السُّنن الإلهية هي معيار المعرفة. وكما أنّ العرض في هذا المستوى بيّن الخصائص المعرفية العامة التي تحدد أصولها ومبادئها الكلية.

المستوى الثاني: فيتناول أحد أسلوبي تحصيل المعرفة[1] من المنظور القرآني ، وهو البيان الإلهي المباشر للمعرفة عن طريق بعث الأنبياء والرُّسل. وقد تبيّن من خلال العرض أنّ الله تعالى قد أخذ بيد البشرية عبر مراحل حياتها المختلفة إلى مراقي المعرفة ، بهذا الأسلوب المباشر ، الشامل لمجالي الغيب والشهادة ، الذي تحول في خاتمة الرسالات إلى نظام استنباطي أرست قواعده الرسالة الخاتمة ، وذلك بإنزال الكتاب على الرسول الخاتم (صلي الله عليه وسلم) ، متضمناً منهج النظر والاستدلال ، إلى جانب الآليات التي تعين على الاستنباط من مصدري المعرفة: القرآن والوجود، أي المتلو والمنظور.

تناول البحث هذه الموضوعات بالعرض والتحليل والمناقشة ، معتمداً في ذلك على منهج التفسير الموضوعي، فتبيّن من ذلك أنّ القرآن الكريم كان حريصاً على بيان السُّنن الإلهية وتقديمها للإنسان ، بالنص أو بالمعنى ، باعتبارها آليات تعين على الاستنباط ، إلا أنّ استجابة المسلمين كانت ضعيفة. ففي حين نجد مصنفات عديدة في أدق جزئيات بعض موضوعات القرآن ؛ كالفقه والعقائد ، لم يحظ علم السُّنن الإلهية ، وهو أهم علم يوازي البيان الإلهي المباشر للمعرفة ، سوى برسالة فريدة من شيخ الإسلام ابن تيمية !.

السُّنن بين المفهوم القرآني والفكر الإسلامي

السُّنن في اللغة جمع سُّنة وهي تطلق في لسان العرب بملاحظة جانبين أو اعتبارين اثنين يتحدد بهما المعنى وعلى ضوئهما يُفهم المقصود: أحدهما الجانب المنهجي ، وهو كون العمل أو التصرف[1] المقصود يشكل أسلوباً جديداً يكون به

---

* دكتوراه في معارف الوحي من الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

[1] أما الأسلوب الثاني ، وهو المستوى الثالث الذي يمثل المنهج الإستنباطي ، فقد تم فصله عن هذا البحث لأسباب فنية . وفي الواقع أن هذا البحث كان قد جاء ضمن دراسة شاملة للسنن الإلهية في القرآن ، موضوعاً ومنهجاً. فكان الموضوع العام للبحث يدور حول ثلاثة محاور أساسية: محور الأصول الكلية للسنن الإلهية الذي بحث في الصيغ التي يستعرض بها القرآن تلك السُّنن ، بالإضافة إلى خصائصها العامة. ومحور الأصول الفرعية للسنن الذي بحث في السُّنن على حسب مجالاتها وهي: الطبيعة والمجتمع ثم الأنفس. وكان الإطار المعرفي للسنن الإلهية هو المحور الأول للدراسة ، وقد اشتمل هذا المحور على المنهج النبوي في بيان السُّنن الإلهية أيضاً.

[1] المقصود بالأعمال هي الأفعال العادية للفرد التي لا تنشيء إلتزامات كالنوم والأكل والشرب ...الخ ، أما المقصود بالتصرفات فهي الأفعال التي تنشيء إلتزامات كالبيع والشراء وغيرها.

سابقة يُقتدى بها ، والثاني جانب معنوي ويقصد به المداومة والاستمرار على اتباع ذات الأسلوب بصفة متكررة ومطردة ، من غير تفكير أو روية.

فالسُّنة بملاحظة الجانب الأول هي: الطريقة والسيرة والمثال المتبع[1]. وباعتبار الجانب الثاني هي العادة[2]، ويُعنى بها التكرار والمداومة اللذان يكسبان النفس قوى اعتبارية تحملها على نمط ثابت من العمل دون توجيه عقلي ، وهنا قد تُحمل السُّنة على الطبيعة والسجية. فالنظر في المعنى عند إطلاق هذه اللفظة يكون من هاتين الناحيتين ، وتنضبط سائر معاني السُّنة في أنها أسلوب مطرد في الحركة والتتابع ، سواء كان على المستوى الفردي أو الجماعي ، ولذلك قال ابن فارس "ت:395هـ " في "معجم مقاييس اللغة": السين والنون أصل واحد مطرد ، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة.

وفي الفكر الإسلامي أطلقت على "السُّنة" معانٍ اصطلاحية متعددة وفق الفنون المختلفة. قال ابن منظور: "وإذا أطلقت السُّنة في الشرع[3] فإنما يراد بها ما أمر به النبي (صلي الله عليه وسلم) ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلاً مما لم ينطق به الكتاب العزيز، ولهذا يقال في أدلة الشرع: الكتاب والسُّنة أي القرآن والحديث"[1]. قصد ابن منظور بالشرع هنا اصطلاح علماء أصول الفقه الذين ينظرون إلى "السنة" من زاوية أدلة الأحكام وباعتبارها مصدراً للتشريع بجانب القرآن الكريم ، ولذلك ذهبوا إلى أنّ السُّنة هي كل ما جاء عن النبي (صلي الله عليه وسلم) من قول أو فعل أو تقرير. ويقصدون بذلك أنّ هذه الأمور الثلاثة هي الدالة على طريقته (صلي الله عليه وسلم) ومنهجه في بيان وتنـزيل أحكام الدين[2]. بينما أضاف أهل الحديث إلى ما ذكره الأصوليون أمرين آخرين هما: صفاته (ε) وسيرته. والفقهاء يقصرون السُّنة على ما قابل الفرض أو الواجب من الأحكام ، ويقولون إنها: ما يُحمد فاعله ولا يُذم تاركه ، كالمندوب والمستحب[3] وهو أخصّ من كل تلك المعاني السابقة.

وباستقراء القرآن والسنة النبوية نجد أن مفهوم "السُّنة" أوسع من هذه المعاني الاصطلاحية في نطاقها ، وقد بيّن ابن تيمية مفهوم السُّنة في القرآن بأنها: "العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني مثل ما فعل بنظيره الأول"[4]. ويبدو أنّ هذا أيضاً

---

(1) قال الإمام الطبري "ت:310هـ" ،أبو جعفر محمد بن جريرفي تفسيره عند الآية :137 آل عمران ، إن السُّنة هي: المثال المتبع والإمام المؤتم به. وكذلك قال الزجاج " ت:311هـ " أبو إسحاق إبراهيم السّري في كتابه " معاني القرآن وإعرابه " .و ذهب ابن منظور "ت711هـ" جمال الدين محمد بن مكرم ، في "لسان العرب " ، مادة "سنن " إلى أنّ الأصل فيه الطريقة والسيرة. وقال صاحب مختارالصحاح " ج133/1": السُنن: الطريقة ، يقال: استقام فلان على سنن واحد. وامض على سُننك وسَننك أي على وجهك، وتنح عن سُنن الطريق، وسَننه وسِننه، ثلاث لغات والسنة: السيرة " وهكذا ذهب أكثرهم إلى أن السنة: هي الطريقة والسيرة.

(2) هذا ما قاله الزمخشري ، محمود بن عمر عند تفسير الآية 42 من سورة فاطر ، راجع " الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل "– البابي الحلبي "القاهرة1972" ويلاحظ أن تفسير السُنة بالطريقة والعادة هو صنيع أكثر الأصوليين ، بينما لم يرد لفظ العادة عند أهل المعاجم تفسيراً للسنة إلا قليلاً ، هذا وقد نقل الإمام الشوكاني في " إرشاد الفحول " عن الكسائي قوله: إنّ السُنة هي الدوام.

(3) قصد بالشرع هنا اصطلاح الأصوليين أو ما قابل المعنى اللغوي ، لأنّ استخدام مفردة " سُنَّة " في تراثنا الإسلامي تحمل مفاهيم أوسع من هذا التعريف ، فضلاً عن الاستخدام القرآني لها بطريقته الخاصة .

(1) ابن منظور ، لسان العرب ، مصدر سابق ج225/13.

(2) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحديث النبوي هو عند الإطلاق ينصرف إلى ما حُدّث به عنه بعد النبوة من قوله وفعله واقراره ، فإن سنته ثبتت من هذه الوجوه الثلاثة . فما قاله إن كان خبراً وجب تصديقه به ، وإن كان تشريعاً ، إيجاباً أو تحريماً أو إباحة وجب اتباعه فيه ." مجموع الفتاوي مج6/18-7.

(3) راجع هذه المعاني:عبد الغني عبد الخالق، حجية السنة، مطبوعات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط1، دار القرآن الكريم" بيروت1986 ".ص45-84. وقارن: القرضاوي، يوسف ، المدخل لدراسة السُنة النبوية ، ط 3مكتبة وهبة ، القاهرة 1992م " ، ص12.

(4) ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ، مجموع الفتاوى ، مج19/13-20.

ينحصر في ما جاء بلفظ "سُنة" في القرآن نصاً ، وهي المعروفة بسنن التاريخ أو الاجتماع ، وبجانبها أنواع أخرى من السُّنن يقررها القرآن بصيغ مختلفة في مجالي الطبيعة والأنفس.

وفي المجمل فإنّ مفهوم السُّنة في القرآن أقرب إلى المعنى اللغوي العام ، ومباين لتلك المعاني الاصطلاحية ، وقد جاءت مضافة إلى ثلاث جهات: سُنة الله تعالى ، وسُنَّة الأنبياء عليهم السلام في بيان الشرعة ووضع المنهاج ، ثم سُنَّة سائر عباد الله ، الصالح منهم والطالح. وسُنَّة الله هي طريقة حكمته في تصريف شؤون الخلق [1]، والتي يمكن التعبير عنها بعبارات مختلفة مثل الناموس والنظام والقانون ، وغيرها من العبارات التي تعكس مضمون الحكمة الإلهية المتعلقة بخلقه وأمره ، والمتجلية في شرعه وفي حقائق الكون[2] الكامنة في الوجود بصرف النظر عن الوعي الإنساني وإدراكه. وهذه هي مقصودنا في هذا البحث.

وسنن الله تعالى بهذا المعنى يطرحها القرآن بصيغ مختلفة ، كصيغة الشرط والجزاء، ويعرضها بأساليب متعددة كالتعميم والتفصيل ، والتنصيص والتقرير..الخ، وعليه فإنّ النظر في السُّنن الإلهية ينبغي أن يكون أيضاً من جوانب متعددة لا من جانب واحد.

فهي من حيث موضوع تعلقها قد ترتبط بعناصر الأشياء وتكويناتها وظواهرها ، أو بأعمال القلوب وأحوالها فتكون موضوعاً للأخلاق ، أو بالمجتمعات البشرية ونشاطها الحضاري وحركتها العمرانية ، فتنشأ من كل ذلك علوم مختلفة: طبيعية وإنسانية واجتماعية وغيرها. وبالنظر إلى طريقة وجودها في الواقع ، فهي إما أن توجد منفردة باعتبارها خصائص للأشياء ، وإما في تداخل وتفاعل مع بعضها البعض ، فتنشأ بينها علاقات ، وأنشطة مختلفة سواء بالسلب أو بالإيجاب. وبالنظر إلى خصائص عملها وطريقة نشاطها تتعدد إلى سنن صارمة فورية النتائج وأخرى متراخية النتائج ، بحيث قد يخفى على الناس أسلوب اطرادها. وبالنظر إلى ارتباطها بإرادة الإنسان من جانب والإرادة الإلهية من جانب آخر تتنوع إلى سنن كونية وأخرى شرعية. والسنن الإلهية باعتبار ذاتها فإنها آيات بيّنات ، ودلائل ومرشدات تهدي الخلق إلى الخالق عن طريق النظر.

فهذه هي أهم الجوانب والمنطلقات التي تكوَّن موضوع البحث في السُّنن الإلهية بصورة عامة ، ولكن لكي يتم فهم القوانين الإلهية بطريقة علمية منضبطة لابد من طرحها في إطارها المعرفي ، وذلك ضمن التصور القرآني العام للمعرفة، وهو الجانب الذي يعالجه هذا البحث.

أولاً: السُّنن الإلهية والتصور المعرفي في القرآن

---

[1] الأصفهاني ، الراغب ، مفردات غريب القرآن ، دار المعرفة ،بيروت،بدون تاريخ ". مادة " سن. ولعل من التعبيرات المناسبة عن السُّنن الإلهية وبيان مجالاتها ، ما جاء عن الشيخ الشعراوي بقوله:" السُّنن هي الطرق التي يصرّف الله بها الكون بما يحقق مصلحة ذلك الكون ، ليضمن للإنسان ما يحقق مصلحته. ومصلحة الإنسان تتمثل في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسيّر ". محمد متولى الشعراوي ، تفسير الشعراوي ، نشر دار الأخبار " القاهرة 1991م " مج3/1763.

[2] من المفيد تحديد مفهوم لفظ " الكون " كما ورد في الفكر الإسلامي. فالقرآن يستخدم لفظ " التكوين " صفة لله تعالى وهو إخراج المعدوم من كتم العدم إلى الوجود ، كما ذهب إليه التهانوي في" إصطلاحات الفنون " ، مادة " التكوين ". وجاء في القرآن قوله تعالى:(**إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون**) " مريم 35". وذهب التهانوي إلى أن معنى الكون عند المتكلمين مرادف للوجود وقد يستخدم أيضاً مصطلح " العالم " ويقصد به مجموع أجزاء الكون، أي مجموع المخلوقات. وعند الفلاسفة يرادف الكون الوجود المطلق العام الذي بمعنى المكّون. فتحصل من جملة هذه التعريفات أنّ الكون هو مجموع ما تكوّن بالإرادة الإلهية في الزمان والمكان من الموجودات من كتم العدم .راجع عرضاً بهذا المعنى: التفتازاني ، أبو الوفاء الغنيمي ، الإنسان والكون في الإسلام ، دار الثقافة للنشر " القاهرة 1995م " ص25.

إذا كان الإطار المعرفي للسنن الإلهية هو التصور القرآني للمعرفة ، فأين موقع تلك السُّنن في هذا التصور على وجه التحديد ؟.

من غير أن نستهدف التعرض للمنهج المعرفي بصورة تفصيلية ، فإنّ الإجابة على هذا السؤال تقتضي التعرف على الأسس التي يقوم عليها التصور المعرفي عموماً ، وفي القرآن الكريم خصوصاً ، وهي في جملتها تدور حول المحاور التالية:

ما هي طبيعة المعرفة في التصور القرآني ، وما هو مصدرها وطرق تحصيلها ، وما هي أهم وسائل اكتسابها ، ثم ما الضابط والمعيار في التحصيل المعرفي من الوجهة القرآنية ؟

هذه هي أهم المحاور التي يمكن من خلالها الوقوف على الخصائص العامة للتصور المعرفي في القرآن ، ويتحدد موقع السُّنن الإلهية ضمن إطارها.

توجد حصيلة مقدرة من الجهد البشري عن المعرفة تشكلت من خلال محاولات مستمرة للإجابة عن هذه التساؤلات عبر التاريخ الإنساني ، وهي حصيلة يصعب تحديد جزئيات اتجاهاتها في هذا المقام ، ولكن يمكن إضافتها إلى ثلاثة منطلقات فكرية بالنظر إلى صلتها بالتصور القرآني للمعرفة[1]. فهي إما قائمة على العقل المحض ، وإما ممزوجة بين العقل والنقل مع تغليب جانب العقل ، وإما أن يكون جانب النقل هو الأغلب.

ولعل أقرب هذه المنطلقات إلى التصور القرآني للمعرفة هو الأخير؛ وهو ما جاء في إطار علم أصول الدين، حيث كان الغرض هو الدفاع عن العقيدة في مواجهة التيارات الفكرية المختلفة. كما أنّ تصدير مصنفات أصول الدين دائماً بأبواب وفصول عن العلم والمعرفة دليل معتبر يعكس مدى إهتمامهم بهذا الجانـب[2].

فالتصور المعرفي كما يعرضه القرآن منهج متكامل الجوانب إذا قيس بالتصورات المعرفية الوضعية في التاريخ الإنساني. أما بيان تفاصيل هذه الجوانب ففي مظانها من المصنفات[1]، ويتوجه النظر هنا إلى الأسس العامة التي تُبْنَى عليها تلك التفاصيل ، بالقدر الذي يتحدد به الإطار المعرفي للسنن الإلهية ، بحيث تعكس الإجابة عن تلك الأسئلة المطروحة ، أي مصدر المعرفة وطرق تحصيلها ووسائل كسبها ، وأهدافها ومعيارها ، والمنهج العلمي الذي وضعه القرآن لفهم حقائق الوجود وتفسيرها.

---

[1] هذه المنطلقات الفكرية يمكن ضـبطها في ثلاثة لأنها: إما قائمة على العقل المحض ، كما هو الحال عند الفلاسـفة من أتباع المذهب العقلي ، خارج نطاق الفكر الإسـلامي ، وإما على المزج بين العقل والنقل مع تغليب جانب العقل ، كما هو الحال عند الفلاسفة المسلمين ، وإما أن يكون جانب النقل هو الأغلب ، كما هو الحال عند أهل علم الكلام. وإلى جانب كل ذلك توجد مجهودات معاصـرة في إطار الفكر الإسـلامي قد تقترب من التصور المعرفي القرآني أو تبتعد عنه.

[2] راجع على سـبيل المثال: الباقلاني ، أبوبكر محمد بن الطيب "ت:403هـ " كتاب: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ، والقاضـي عبد الجبار المعتزلي " ت:415هـ " كتاب: المغني في أبواب التوحيد والعدل ، والبغدادي ، أبو منصـور عبد القاهر " ت: 429هـ " كتاب: أصـول الدين ، والقاضـي أبو يعلى الحنبلي "ت:458هـ " كتاب: المعتمد في أصـول الدين ، وكتاب إحياء علوم = الدين للإمام الغزالي " ت:505هـ ". ومن المتأخرين كتاب المواقف للإيجي ، عضد الدين عبد الرحمن " ت756هـ " وشرحه للسيد الشريف على بن مرتضى الجرجاني " ت:816هـ ". فكل هذه المصنفات قد صُدّرت بأبواب تبين ماهية العلم والمعرفة وما يتعلق بهما من مسائل.

[1] راجع مثلاً: الكردي ، راجح عبد الحميد ، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسـفة ، مكتبة المؤيد " الرياض – السـعودية 1992م ". وهذا الكتاب من المؤلفات المعاصرة التي جمعت بأسلوب مقارن قضايا المعرفة بين الفكر الإسلامي والوضعي بصورة شاملة.

1- كيفية تحصيل المعرفة

استعرض أبو منصور البغدادي خلاصة الأسس المعرفية في الإسلام بالصورة التالية:

فهو قد أشار أولاً إلى المصدر الحقيقي للمعرفة في الفكر الإسلامي في تقسيم أساسي فقال: "العلوم عندنا قسمان: أحدهما علم الله تعالى ، وهو علم قديم ليس بضروري ولا مكتسب ولا واقع عن حسٍ ولا عن فكر وهو مع ذلك محيط بجميع المعلومات على التفصيل ..، والقسم الثاني من أقسام العلوم: علوم الناس وسائر الحيوانات.

ثم بيّن نوع المعارف التي تحصل للناس في القسم الأخير فقال: وهي ضربان: ضروري ومكتسب ، والفرق بينهما من جهة قدرة العالم على علمه المكتسب واستدلاله عليه ، ووقوع الضروري فيه من غير استدلال منه ولا قدرة له عليه. والعلم الضروري قسمان: أحدهما علم بديهي والثاني علم حسّي. والبديهي قسمان: أحدهما علم بديهي في الإثبات كعلم العالم منّا بوجود نفسه ، وما يجد في نفسه من ألم ولذة وجوع وعطش وحر وبرد وغمّ وفرح ، ونحو ذلك. والثاني علم بديهي في النفي كعلم العالم منّا باستحالة المحالات ، وذلك كعلمه بأنّ شيئاً واحداً لا يكون قديماً ومحدثاً ، والشخص الواحد لا يكون حيّاً وميّتاً في حال واحدة ، وأنّ العالم بالشيء لا يكون جاهلاً به من الوجه الذي علمه في حال واحدة. أما العلوم الحسية فمُدْرَكه من جهة الحواس الخمس.

أما عن طرق تحصيل المعرفة فقد قال البغدادي: العلوم النظرية أربعة أقسام: أحدها الاستدلال بالعقل من جهة القياس والنظر. والثاني معلوم من جهة التجارب والعادات. والثالث معلوم من جهة الشرع. والرابع معلوم من جهة الإلهام في بعض الناس أو بعض الحيوانات دون بعض - يقصد بالنظري هنا العلم المكتسب نفسه بوجه عام ، لا الحاصل بالنظر والإستدلال فحسب - لذلك قال: والعلوم النظرية نوعان: عقلي وشرعي ، وكل واحد منهما مكتسب للعالم به ، واقع له باستدلال منه عليه وبعضها أجلى من بعض "[1].

يظهر من هذا العرض أن طبيعة المعرفة في التصور القرآني لها جانبان:

جانب إلهي به تحصل المعرفة عن طريق التكوين والخلق في الإنسان –دون إرادة منه- ليكوّن الأصول التي تتأسس عليها المعرفة ، وهو المسمي بالضروري ، وقد يسمى وهبي. وجانب آخر كسبي يقوم على إرادة الإنسان ومدى قدرته على الاستدلال والاجتهاد في الطلب. وقد أمدّ الله تعالى الإنسان بالعقل والحواس لبناء هذا الجانب الأخير من المعرفة عن طريق التجربة والاستدلال ، بل قد جاءته معارف مباشرة من الله تعالى عن طريق الوحي والإلهام لحين من الزمن قبل أن يكتمل الأمر بالرسالة الخاتمة التي جمعت في منهجها بين هذه الأساليب الثلاثة ، أعني الوحي والتجربة والاستدلال بنوعيه القياسي والاستقرائي[1]. ويتبين من كل ذلك أن طرق تحصيل المعرفة من الوجهة القرآنية تتلخص في الآتي:

---

[1] يتحدث الإمام البغدادي هنا على لسان المتكلمين الذين هم أقرب إلى التصور القرآني في هذه المسألة من غيرهم كما سبقت الإشارة .

* وراجع كل هذه الإقتباسات ، البغدادي ، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر التميمي " ت:429هـ " ، كتاب أصول الدين ، ط1 دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1981م ، ص8–9، 14. ذهب جلّ علمائنا إلى أن إدراك وجود الله تعالى من العلوم الضرورية التي يجدها الإنسان في نفسه دون حاجة إلى دليل وبرهان. فإذا صحّ هذا القول تقتصر مهمة المعرفة للرسل في حق الله على إثبات وحدانيته تعالى في الذات والأفعال والصفات .راجع: كتاب المواقف للقاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي " ت:756هـ " وشرحه للسيد الشريف على بن مرتضى الجرجاني "ت:816هـ " ، دار الكتب العلمية " بيروت 1998م " ط1.مج1/68.

[1] إن كل الآيات القرآنية التي تدعو إلى الاعتبار إنما تدعو إلى استخدام القياس– عقلياً كان أم فقهياً –كقوله تعالى:(**فاعتبروا يا أولي الأبصار**) " الحشر 2 " وهذا يمثل جانباً كبيراً من السُنن الإجتماعية ، وهي تلك المعروفة بسنن التاريخ. أما الإستقراء فإن كل الآيات التي تدعو إلى معرفة الله عن طريق العقل ترشد إليه ، ويعكس ذلك جانب السُنن الطبيعية.

أ- الخبر الصادق من الله تعالى ورسله ، ويتمثل في البيان الإلهي للمعرفة عن طريق الوحي.

ب- المعارف الحاصلة عن طريق النظر والاستدلال القائمين على مبادئ العقل الأولية ، سواء كان في مجال الغيب أو الشهادة.

ج- المعارف الحاصلة عن طريق التجربة القائمة على الحواس في عالم الشهادة.

وقد أشار القرآن إلى هذه الطرق الثلاثة مراراً في محاولة لإثارة إنتباه الإنسان ، حيث أثبت له الجهل في مبتدأ قدومه إلى الحياة ، فقال تعالى:(**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا**) ، ثم قال:(**وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) "النحل آية : 78". فالسمع هو وسيلة علم الخبر ، كما أنّ البصر وسيلة علم المختبر ، والفؤاد وسيلة التحليل والتركيب ، أي الاستدلال. فهذه هي جملة الوسائل التي تقود الإنسان إلى المعرفة ، وكلها عطاء رباني خالص يدخل ضمن الأمانة التي حملها الإنسان ، لذلك قال تعالى:(**وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً**) "الإسراء آية: (36) ".

2- خصائص المعرفة في التصور القرآني

إنّ خصائص المعرفة في التصور القرآني من الموضوعات المهمة التي هي في حاجة إلى بحث مستفيض ، يبيّن أنواعها ويعالج سائر مسائلها ومتعلقاتها ، لأنها تضع القواعد العامة التي توجه البحث العلمي إنطلاقاً من القرآن نفسه. ويغلب في ظني أنه لو تم بيان هذه الخصائص من قبل بصورة جلية وتحقق إعمالها ، لعصمت الفكر الإسلامي من الخوض في كثير من المباحث التي ما كان له أن يخوض فيها، لأنه لا يفضي إلى تحقيق نتائج ملموسة في الواقع ، بل قد يورث سوء الفهم عن التصور القرآني للأجيال المتعاقبة ، مثل أغلب المسائل التي كانت مثاراً للجدل والخلاف بين الفرق الإسلامية.

وإذا تعذر بيان تفاصيل هذه الخصائص في هذا الموضع نظراً لطبيعة البحث، فليكن ذلك في موقع آخر ، ولكن ينبغي عرض القدر الذي به يتميز التصور المعرفي في القرآن الكريم عن سائر التصورات الوضعية.

فمن أهم هذه الخصائص: أن المعرفة في التصور القرآني إلهية المصدر ، أي أن الله تعالى خالق المعرفة ومكسبها للإنسان ،كما يكسبها لمن شاء من خلقه ، حيث أن الإنسان يولد من غير علم:(**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) " النحل آية: 78". وعليه فإن المعرفة الإنسانية معرفة نسبية مهما بلغت بصاحبها من مقام، سواء من حيث الكم أو من حيث الكيف[1]، وذلك ما يؤكِّده قوله تعالى:(**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إلا قَلِيلاً**) "الإسراء :85 "، وقوله تعالى:(**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**) "يوسف:76".

ومن هذه الخصائص أيضاً: أن المعرفة في التصور القرآني لا تبحث عن حقائق الأشياء وكنهها ، وإنما عن خصائصها وصفاتها المميزة وطبائعها[2]. وهذا لا يعني حصراً للعلم في جانب معين ، بقدر ما يعني تبصيراً للإنسان وتوجيهاً له إلى المجال المعرفي الصحيح المنتج. فالكون كله مجال للنظر ، ولكن الغرض من النظر والعلم في التصور القرآني هو العمل ،

---

[1] قال ابن خلدون ، وهو يلاحظ هذا الجانب من التصـــور القرآني للمعرفة :" إن البشـــر جاهل بالطبع ، للتردد الذي في علمه ، وعالم بالكســـب والصـــناعة لتحصـــيل المطلوب بفكره بالشـــروط الصـــناعية ". المقدمة ، تحقيق: على عبد الواحد وافي ، دار نهضـــة مصـــر " القاهرة 1979م "ط3،ج3، ص1015.

[2] لعل هذا هو السبب في إعلان الحرب على الفلسفة بصيغتها اليونانية من بعض علماء الإسلام وعلى رأسهم الإمام الغزالى وابن تيمية.

لذلك لا جدوى من الخوض في أمر معرفي لايكون من ورائه عمل على مقتضاه ، ولا تقتضيه مهمة الإنسان في الحياة. فالنظر خارج نطاق الوسائل التي جهز الله تعالى بها الإنسان أمر غير منتج في التصور القرآني[3].

لكن لم يلتزم الفكر الإسلامي من حيث الواقع بهذا الأصل في أكثر الأحوال، إتباعاً للفكر الوضعي، فخاض في كثير من القضايا غير المنتجة وغير المفيدة للعمل، كما هو واضح في بعض قضايا علم الكلام، كمشكلة أفعال العباد ومشكلة خلق القرآن، ورؤية الخالق تعالى بالبصر، إلى آخر تلك المسائل. هذا في الوقت الذي يعلمنا القرآن:(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**) "الشورى آية: 11". وقد بينت السُّنة أنّ كل ما تبادر إلى ذهن الإنسان من شيء فالله تعالى خلاف ذلك ، لهذا لا يجدي التفكير في ذات الله تعالى ، أو محاولة فهم كيفية ارتباط فعله تعالى بفعل العبد من وراء الحجب ، وكل الحقائق المشابهة ، فإن النظر فيها عمل غير منتج. وإنما يكون النظر في آثار فعله وصفاته تعالى المتجلية في الوجود ، وهي سننه التي بثها في الكون لتكون سبيلاً إلى الإيمان به تعالى وتوحيده.

ومن هذه الخصائص أيضاً: أنّ المعرفة في التصور القرآني قائمة على سُنة الإزدواج والتكامل، سواء كان على المستوى الفكري، ممثلاً في ترتيب المقدمات

على وجه مخصوص لتحصيل النتائج[1]، أو على مستوى التدافع بين الأدلة في صورة حق وباطل في الذهن، أو في الواقع، كما هو الشأن في الكون المادي كل[2].

والمقصود بالإزدواجية هنا أن يقارن الله تعالى بين أمرين متلازمين معرفياً لبيان السبيل الأمثل لفهم الغايات المعرفية في القرآن، تُفْضِي مراعاتها – أي المقارنة - إلى حسن التعامل مع الواقع. وتبرز هذه الإزدواجية المعرفية في جوانب كثيرة أهمها ما يلي:

- فمن حيث وسائل اكتساب المعرفة هناك إزدواجية وتكامل بين العقل والحس من ناحية، والعقل والنقل من ناحية أخرى. والقسم الأول يمثِّل الأسس التي تقوم عليها المعارف الإنسانية، ويمثِّل القسم الثاني، أعني العقل والنقل ، البناء المعرفي الذي لا تكتمل حقيقته بصورة سليمة إلا بهذا الإزدواج. وهذا يبيّن عدم جدوى أية محاولة للفصل بين هذه الإزدواجيات التي هي جزء من السُّنن الكونية.
- ومن حيث ميدان البحث ومجال العمل هناك إزدواجية وتكامل بين الغيب والشهادة ويصبح الإيمان بكل منهما واجب. ثم إن المعرفة من هذا الوجه عبارة عن إنطلاق وعبور مستمر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، سواء عن طريق المقدمات

---

[3] قال الخطيب البغدادي " ت:463هـ " ، وهو يؤكد هذه النقطة:" والعلم يراد للعمل ، كما العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلّاً على العالم ، ونعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذُلاً ، وصار في رقبة صاحبه غلاً " اقتضاء العلم العمل ، ت: الألباني ، دمشق 1997 ، ط4.ص14–15 ، وقارن تهذيب الكتاب ، المكتب الإسلامي ، بيروت 1993م ط1،ص6.

[1] قرَّر الإمام الغزالي هذه الحقيقة قائلاً:"كل علم لا يحصل إلا عن علمين سابقين يأتلفان ويزدوجان على وجه مخصوص ، فيحصل من إزدواجهما علم ثالث على مثال ما يحصل النتاج من إزدواج الفحل بالأنثى. ثم كما أن من أراد رمكة– نوع من الخيل التركي– لم يمكنه ذلك من حمار وبعير ، بل من أصل مخصوص من الخيل الذكر والأنثى ، فكذلك كل علم فله أصلان مخصوصان وبينهما طريق في الإزدواج يحصل منه العلم المستفاد المطلوب". ولأن الغزالي يرى أن الإزدواج سُنة عامة في الماديات والمعنويات ، لذلك قال في موضع آخر:"إن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله تعالى فإنه فرد لا مقابل له بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها"، إحياء علوم الدين ،ط1 ، دار الحديث ، القاهرة 1992م ،مج22/3 ، 44.

[2] راجع في صور التدافع الفكري ضمن المجالات الخمسة التي يتخذها الصراع بين الحق والباطل عامة: البحث الشامل الذي أعده محمد رشيد رضا ، في مجلة المنار ، المجلد التاسع ، سُنة 1906م ، ص54.

العقلية الصحيحة أو عن طريق تأويل ما جاء في كتاب الله تعالى من أخبار ومقررات وتحويلها إلي حقائق ملموسة في الواقع بمرور الزمن وتطور العلم. وهذا أحد وجوه الإعجاز القرآني.

- ومن حيث طريقة تحصيل المعرفة هناك إزدواجية وتكامل بين العلم الضرورى والعلم المكتسب ، أو الوهبي والكسبي اللذين بهما يتبيّن الدور الإلهي والدور البشري في العملية المعرفية. ومحاولة تحديد العلاقة أو الوقوف على "الكيفية" هنا أمر عسير ، نظراً للجانب الإلهي الذي يخرج عن نطاق الوسائل المعرفية للإنسان. لهذا لم يوفق الفكر الإسلامي في الوصول إلى نتائج مفيدة عندما خاض في مسألة كيفية حصول العلم عُقَيب النظر ، وهي قضية أشبه بمحاولة معرفة كيفية إفضاء أفعال العباد إلى نتائجها وآثارها مع فعل الله تعالى الذي خلق كل شيء. فالبحث في كل منهما عمل غير منتج لا يؤدي إلى نتائج ملموسة[1].

نعم قد تؤدي معرفة حقيقة ذلك إلى اطمئنان القلب وتقوية الإيمان ، وقد سأل بعض الأنبياء الله تعالى أن يحقق لهم ذلك، كما قال إبراهيم (عليه السلام):(**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى**) "البقرة آية:260"، بل قد سأل موسى (عليه السلام) أكبر من ذلك فقال:(**رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**) "الأعراف آية:143"، ولكن الإجابة، على كل حال، لم تكن مباشرة، بل فيها ما يفيد التوجيه بعدم العودة إلى مثل هذه الأسئلة. وكفى للناس عبرة ما وقع على بني إسرائيل:(**فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ**) "النساء آية: 153".

وبقراءة الآيتين معاً يتبين أنّ سُنَّة الله تعالى ثابتة لا تتبدل ، والجزاء من جنس العمل في كل حال. فلما طلب موسى (عليه السلام) إزاحة الحجاب في الدنيا للنظر إلى ربه بقوله:(**أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ**) دكّ الله تعالى الجبل أمامه (**وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا**). ويغلب في الظن أنه ولو لم يكن نبياً وحَسَن القصد في الطلب ، لأصابه السوء ومات من الصاعقة ثم لم يفق ليجد فرصة لإعلان التوبة بقوله:(**سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**) "الأعراف آية: 143". أما بنو إسرائيل فبسوء نيتهم عندما سألوا نفس المسألة أخذتهم الصاعقة بظلمهم !

- ومن حيث الغاية هناك إزدواجية وتكامل بين العلم والعمل[1]. والأخير هو الغرض وإلا فلا فائدة من علم لا يفضي إلى عمل في التصور القرآني للمعرفة ، وكفى استعاذة النبي (صلي الله عليه وسلم) من ذلك. وقد أفاض علماؤنا في بيان هذا الجانب ،كما نقل عنهم ابن خلدون مقولتهم الشهيرة في هذا الصدد: "أول العمل آخر الفكرة ، وأول الفكرة آخر العمل".

---

[1] في الواقع البحث في هذه الأمور له جانبان: الجانب الأول أن يكون بحثاً عن الحقيقة كما هو في واقع الأمر ، والنظر في هذا الجانب بحث في حقيقة الشيء وهو أمر غير منتج. أما الجانب الثاني فهو البحث عن خصائص الأشياء ، والأسباب الظاهرة التي تعكس فعل الله تعالى = غير المنظور ، وهي القوانين والسنن التي أودعها الله تعالى في الخلق لترشد العباد إلى الخالق ، بها سخرت الأشياء للإنسان ، كأن يعرف الإنسان أن الماء يتكون من عنصرين بنسب محددة متى إندمجا معاً كان الناتج ماء ، مع كمال الشروط وإنتفاء الموانع ، فالبحث في هذا الجانب أمر ممكن ، بل يدفع القرآن إليه الناس دفعاً ، والتمييز بين الجانبين أمر دقيق وهام.

[1] قال الإمام الغزالي وهو يبيّن هذا الإرتباط:" إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم ، والعلم تابع الفكر ". راجع : التفكر في خلق الله " رسالة مقتبسة من كتاب إحياء علوم الدين ، ط1،إعداد: ماهر المنجد ، دار الفكر العربي ، بيرت 1995م، ص41.

ثم قال ابن خلدون وهو يبيّن أنّ أفعال البشر منظمة مرتبة لأنها نتاج الفكر ، بخلاف أفعال سائر الحيوانات:" فلا يتم فعل الإنسان في الخارج إلا بالفكر ..، فهذا الفكر هو الخاصية البشرية التي تميز بها البشر عن غيره من الحيوان ، وعلى قدر حصول الأسباب والمسببات في الفكر مرتبة تكون إنسانيته "[1].

أما الراغب الأصفهاني فقد رأى أنّ العلم والعمل هما عنصرا العبادة ، فقال: "العبادة ضربان: علم وعمل ، وحقهما أن يتلازما ، لأنّ العلم كالأُسّ والعمل كالبناء، وكما لا يغني أُسٌّ ما لم يكن بناء ، ولا يثبت البناء ما لم يكن أُسّ ، كذلك لا يغني علم بغير عمل ، ولا عمل بغير علم..، والعلم أشرفهما ولكن لايغني بغير عمل "[2].

ومن جانب آخر ، وبالنظر إلى غاية المعرفة وأسلوب العمل معاً ، هناك إزدواجية العلم والأخلاق أو العلم والشرع ، أي أنّ المعرفة في التصور القرآني معرفة منضبطة من حيث أنها نتاج الفكر ، ومحكومة بالشرع من حيث أنها عمل في منطلقاتها واستهداف غاياتها .

فمن حيث المنطلقات يجب ألا تتعرض ثوابت النظام الكوني للإختبار بدعوى الحصول على نتائج علمية ، كامتهان كرامة الإنسان من أجل العلم بإجراء تجارب علمية مهلكة فيه أو التضحية بحياته من أجل ذلك. ومن حيث النتائج يجب ألا يتعرض النظام الكوني بأسره للخطر بسبب العلم والمعرفة ، ولو ملك الإنسان القدرة ووسائل الإبادة الشاملة.

هذه بعض الخصائص العامة للتصور المعرفي في القرآن التي تميزه عن سائر التصورات الوضعية ، وهي مقررة بعمومات الكتاب والسنة ، مؤيدة بنصوص جزئية ، بها يتشكل الإطار العام للمعرفة الذي تعمل في ظله السُّنن الإلهية. ومنها تتحدد الأصول والمبادئ العامة للتصور المعرفي الإسلامي في الآتي:

أ- الإيمان بالغيب الذي به تتبين محدودية المعرفة البشرية مهما بلغت المدى.

ب- الإيمان بواحدية مصدر النظام الكوني ، الذي يتجلى من خلال التوحيد:(**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**) "الأنبياء آية: 22".

ج- الإيمان بالواقع الموضوعي للأشياء والوجود خارج الوعي الإنساني.

د- إثبات نظام الأسباب والمسببات ، أي مبدأ العلية العامة.

3- معيار المعرفة في التصور القرآني

تندرج السُّنن الإلهية ضمن معيار المعرفة في التصور القرآني ، لذلك ينبغي عرض الخطوات التي تبين موقعها وتحدد نطاقها ، باتباع أسلوب تفصيلي يشرح المطلوب.

فالمقصود بالمعيار هنا: الضابط العلمي الذي يرشد الإنسان إلى تحقيق اليقين في سبيل طلبه للمعرفة ، وبه يتمكن من تمييز الحقيقة عن الوهم. ثم إنه لما كانت المعرفة قد تكون متعلقة بذوات الأشياء أو بالنسب بينها وإضافة الأحكام إليها ، فإنّ المقصود بالمعيار هنا ما تعلق بالجانب الأخير. ولكن على خلاف الفكر الوضعي فإن المعيار في التصور القرآني قد يستفاد من الأمر والنهي كما يستفاد من مطلق الخبر. وهو إما أن يكون معياراً نقلياً قائماً على الخبر الصادق من الله تعالى ونبيّه

---

[1] ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، المقدمة ، مصـــدر ســـابق ص1011 ، وراجع مزيداً من التفصـــيل عن إزدواجية العلم والعمل ، الإمام الشاطبي في الموافقات ، دار الفكر " القاهرة، بدون تاريخ " مج1/46.

[2] الأصفهاني ، الراغب ، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ط1، تحقيق عبد المجيد النجار ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص159.

(صلي الله عليه وسلم) ، المفيد لليقين ، وإما أن يكون معياراً عقلياً قائماً على المقدمات اليقينية ، كالأوليات العقلية أو المحسوسات أو المجربات[1].

وهذه هي الأصول التي تُبْنى عليها المعرفة المكتسبة ، وبالنظر إليها يصبح المقصود بالمعيار هنا: الدليل المرشد إلى العلم ، بمعني الأساس الذي يكون منه الانطلاق لاكتِّساب المعرفة اليقينية. وهذا يتمثَّل في العقل الذي أودعه الله تعالى معارف أولية يقينية ، وفي النقل ممثلاً في كتاب الله تعالى وسُنَّة نبيه (صلي الله عليه وسلم) والإجماع. والمعرفة فيها قد تكون مباشرة بالنص ، وقد تكون في حاجة إلى نظر لتحصيلها ، كما هو معروف في أصول الفقه.

وباعتبار النظر والاستنباط هناك أمران آخران متصلان بالمعيار هما: مجال النظر، والطريقة الإجرائية الموصلة إلى المطلوب يقيناً.

أما مجال النظر والاستنباط فإما في كتاب الله المنزل "القرآن" ، وإما في كتاب الله المشهود "الأنفس والآفاق". وأما الطريقة الإجرائية فهي أسلوب النظر والإستدلال، ليكون المقصود بالمعيار عندئذٍ الإستقراء والقياس ، القائمين على السُّنن والقوانين الإلهية المبثوثة في الوجود في صورة علل وأسباب وأمثال ، لغرضين اثنين هما: إرشاد الخلق إلى حكمة الله في الكون ليتخذها الناس معياراً للإستنباط المعرفي من المصدرين ، أي مجالي النظر السابقين. والغرض الثاني ، وهو الأهم ، إتخاذ تلك القوانين وسيلة إلى معرفة الله الذي أوجد هذا النظام وتلك السُّنن في الخلق ثم أرشد الناس إليها:(**الذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**) "الأعلى آية 2- 3".

وهذا المعيار ، أعني الذي يرشدنا إليه القرآن المتمثل في السُّنن الإلهية ، أعم وأشمل من المعيار المعروف القائم على الإستدلال ، لأنه لا يُبطل القياس والإستقراء وإنما يضيف إليهما قواعد أخرى لتحصيل المعرفة ،كما سيتضح فيما يلي.

فالله تعالى يعلمنا في كتابه الكريم أنه يجمع بين المتماثلات ويفرق بين المختلفات ، وأمرنا بالإعتبار مما وقع للأمم السابقة[1]، ثم وعدنا ، ووعده حق ، بتحقيق أمور بعينها ، كالنصر والظفر على الأعداء ، ووفرة النعم في الدنيا إذا نحن إلتزمنا بأمور معينة ، وكرر ذلك بأسلوب وصيغ مختلفة ، كالتنصيص على أن طريقة ما في التعامل مع عباده سُنة له تعالى لا يغيرها ولا يبدلها. ومثله صيغة العموم المفيد للقاعدة العامة كقوله تعالى:(**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ**) "يونس آية 49" و(**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**) "الرعد آية: 38" وقوله تعالى:(**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ**) "القصص آية: 88". أو صيغة الشرط والجزاء ،كما في قوله تعالى:(**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**) "الطلاق أية 2-3".

فالله تعالى يعلمنا في هذه الآية الأخيرة وأمثالها إطراد فعله تعالى مع فعل العبد ، بحيث يتقدم العبد بتحقيق الشرط لحصول الجزاء المرتب الثابت من عند الله، كما أكد تعالى هذا الأمر في آيات أخرى مثل قوله تعالى:(**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) "الرعد آية:11". وهنا لا يُلْتَفَتُ إلى دعوى إحتمال تخلف هذا الجزاء بإرادة الله ومشيئته القاهرة ، وإنما ينبغي للعبد النظر في جانبه ، لأن إرادة الله ومشيئته لا تعارضان سنته ووعده تعالى ، وهي حقيقة تثبت لمن استقرأ الفكرة الكلية للسنن الإلهية في القرآن.

---

[1] راجع كلاماً بهذا المعني ، الإمام الغزالي ، معيار العلم ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت 1990م ، ص26 وما بعدها .

[1] هذا ما جاء تعريفاً للسنن الإلهية عند شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع متعدد من مصنفاته ، إذ رأي أنها:" العادة التي تتضمن أن يفعل في الثاني ما فعل بنظيره الأول " مجموع الفتاوى مج19/13-20.

إذن معيار السُّنن الإلهية صالح لاستنباط الأحكام العقلية وكذلك الأحكام الشرعية الفقهية ، ويتيح الفرصة لتحصيل المعارف في المجالين معاً. أعني الإستنباط من المصدر النقلي وبنفس القدر من الطبيعة. أما الجانب الأول فقد وضع قواعده الأصوليون وعلى رأسهم الإمام الشافعي ، وعند أخذ معيار السُّنن في الاعتبار سيضيف إلى ذلك ما ذكر الله تعالى في كتابه من نظم وقواعد. وذلك وفق العبارات والصيغة التي تساعد على استنباط المعاني التي ترشد إلى حسن القراءة للمجالين. أما الجانب الثاني " الطبيعي والاجتماعي" فإنّ النصوص التي يقدمها القرآن لبيان السُّنن الإلهية فيه لم تستغل بصورة كافية. ومع أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية قد تنبه إلى نظرية السُّنن في القرآن بصورة عامة ، فتعرض لها في مواقع مختلفة من مصنفاته ، وأفرد لها رسالة مستقلة ، إلا أنه لم يضع في ذلك تصوراً متكاملاً. كما تنبه الإمام الغزالي إلى النظام الدقيق الذي يربط السُّنن الكونية بالسنن الشرعية ، ولكنه لم يشأ الخوض فيه نظراً للظروف التاريخية التي كانت تحيط به وقتئذٍ ، وخاصة موقفه من الفلاسفة ، ولكن قد أُسيء فهم عباراته في أكثر الأحوال كما هو واضح في مسألة الأسباب والمسببات[1].

4- ملخص الإطار المعرفي للسنن الإلهية في القرآن

وخلاصة القول في الإطار المعرفي للسنن الإلهية ، هي أنها تحتل أهم جانب من جوانب المعرفة في التصور القرآني ، أعني بذلك المعيار الذي يرشد إلى تحصيل اليقين في إكتساب العلم ، ويقود الناظر إلى الاستنباط الصحيح من مجالي المعرفة المنقول والمنظور.

وميزة هذا المعيار هي أن القرآن الكريم بيّن قواعده وأصوله ثم أرشد الناس إليها ، لذلك فهو أكثر دقة من حيث تحقيق اليقين وإطمئنان القلب ،كما أنه أكثر شمولاً من حيث نطاق العمل لأنه صالح للإعمال في مجالي المعرفة واستنباط الأحكام العقلية والشرعية على حد سواء.

ويتنوع معيار المعرفة وضابطها بصفة عامة باعتبار أصوله إلى نوعين:

الأول: معيار عقلي بحت قائم على أصول عقلية كالبديهيات ، والمحسوسات ، والمجربات وهذا النوع تعرض له الإمام الغزالى بالتفصيل في بعض كتبه مثل: معيار العلم ، ومحك النظر ، والقسطاس المستقيم. وقد سبقه إليه الفكر الوضعي عن طريق الفلاسفة والمناطقة. ولكن تعرّضت أصول هذا النوع للنقض من كثير من المفكرين ، أبرزهم في الحقل الإسلامي شيخ الإسلام ابن تيمية الذي تعّقبها بصورة شاملة ، لا سيما في جانبيه: الحد والقياس ، في أكثر مصنفاته مثل نقض المنطق ، وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول ، وخلافهما.

النوع الثاني: معيار نقلي ، أي أنّ أصوله مقررة بالمنقول الذي هو الكتاب والسنة والإجماع. وهذا النوع لا يُبْطِلُ بالضرورة النوع الأول وإنما يكمله ويزاوجه ،كما مضى بيانه في الخصائص ، وهو ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: معيار نقلي نظري ، بمعنى أنه معيار مستنبط من أصول نقلية أو مستفاد منها مثل بعض أنواع السُّنن الإلهية ، كما أمرنا القرآن بالإعتبار من مواقف الأمم السالفة. وهذا بعينه هي السُّنن الإلهية المسماة بسنن التاريخ ، ولا معنى للإعتبار إلا بوجود معيار ثابت به يمكن قياس الحاضر بالماضي ، والغائب بالشاهد ، وهذا لا خلاف فيه، وإن كانت هناك مواقف لبعض العلماء من القياس الفقهي ، كموقف الظاهرية. وأوضح مثال لهذا النوع

---

[1] تعرض الإمام الغزالى لهذا النظام في مواقع مختلفة من مصـــنفاته ، وخاصـــة في كتابيه: تهافت الفلاســـفة ، ومعيار العلم. ومن العســـير فهم مقصوده إلا بالجمع بين تلك المصنفات ، مع التنبيه على أنّ مسألة الأسباب والمسببات عند الغزالي تمت مناقشتها في بحث مستقل.

هو القياس الفقهي المستنبطة علته بالنظر في النصوص ، كما هو معروف في أصول الفقه. أما القياس بصور عامة فيعتبر معياراً عقلياً مقرراً اعتباره بالنقل وإن كانت طبيعة الإنسان تستخدمه بطريقة عفوية أو فطرية ، كما يرى ابن تيمية في مباحثه.

القسم الثاني: معيار نقلي نصي ، ونعني بذلك أنّ المعيار نفسه منصوص عليه ، سواء كان في الكتاب أو السُنَّة. وكثير من السُنن الإلهية من هذا القسم ، كأن يُعّقب الله تعالى بذكر (سُنة الله) على حادثة ما ، أو ظاهرة معينة وهذه كلها في الجوانب التي للإنسان دور فيها والتي نسميها بالسنن الاجتماعية أو التاريخية. وقد ينص القرآن على المعيار بصيغة الشرط والجزاء ، أو بصيغة وعد ، أو في صيغة خبرية ، وإلى غير ذلك من الصيغ المختلفة التي تظهر باستقراء القرآن. وأبرز مثال لهذا القسم من القياس الفقهي هو العلة المنصوصة ، وهي مشهورة في علم أصول الفقه. وفي الحديث قول النبي (صلي الله عليه وسلم) " **لكل داء دواء** ".

وقد تناول الأصوليون هذين القسمين بالبحث والدرس في أكثر مصنفاتهم ، وتم استخدامهما فعلياً في نطاق استنباط الأحكام الفقهية دون المسائل العلمية بصورة عامة . وقد صُنفت في ذلك بعض المصنفات الخاصة ، مثل كتاب "شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل" للإمام الغزالي.

وبهذا تبيّن أنّ السُنن الإلهية شاملة لكل هذه الأنواع والأقسام ، فتميزت بالشمول من حيث نطاق العمل ، والدقة وطمأنينة القلب من حيث بلوغ اليقين ، لأنها قائمة على المنقول ، مسترشدة بالمعقول ، كما أنها تتصف بالثبات والاطراد باعتبارها معياراً للعلم.

من كل ما سبق يظهر أنّ التصور القرآني للمعرفه قد جمع بين دقة المعيار المعرفي وسلامة المنهج العلمي ونُبل الغاية المعرفية. أما عن المنهج فإن القرآن الكريم قد استخدم كل وسائل الإقناع والتفهيم لإزالة أنماط التفكير التي تتعارض مع الطريقة الصحيحة الموصلة إلي المعرفة الحقة ، ولا سيما التقليد الأعمى ، كما بيّن النبي (صلي الله عليه وسلم) بعض جوانب هذا المنهج ببيان معوقاته مثل التنجيم والكهانة والخرافة وغيرها، وأرشد الناس إلى العمل بالسنن الإلهية التي تمثِّل المعيار العلمي الصحيح؛ ونهى (صلي الله عليه وسلم) عن تفسير الظواهر الطبيعية بأسباب وهمية لا تمت إلى الحقيقة بصلة، كما في حديث كسوف الشمس في يوم وفاة ابنه ابراهيم. والأهم من ذلك كله أنّ القرآن قد بيّن للإنسان مركزه الصحيح في الحياة مثلما بيّن له الغاية من وجوده ، وذلك ببيان أنّ الكون كله مسخر للإنسان ، الأمر الذي يدفعه إلى الاستعلاء عن مستوى الأشياء وعدم الوقوع في حبائل تقديسها وعبادتها دون الخالق سبحانه. هذا جانب ، ومن جانب آخر ، فإنّ معرفة الإنسان لمركزه الصحيح يدفعه إلى حسن التعامل مع الطبيعة من حوله لاستدرار المزيد من المنافع بالوقوف على الأسرار المودعة فيها[1].

أما غاية المعرفة في التصور المعرفي القرآني فهي أمران: معرفة الخالق ، أي التعريف بالله سبحانه وتعالى ، ثم العمل على مقتضى تلك المعرفة[2] ،كما قال تعالى:(**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**) "محمد آية: 19 "

---

[1] قارن: النجار ، عبد المجيد عمر ، " الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية " ، مجلة المسلم المعاصر ، العدد" 77" ، 1995م.

[2] لهذا قال ابن بطة " ت:387هـ " في كتاب " الإبانة " :" فالإيمان يا أخي –رحمك الله – هو القول ، والعمل هو الطاعة ، والقول تبع للطاعة ، " يقصد أن العمل المؤسس على الاعتقاد هو تنفيذ حرفي له " ، والعمل والناس يتفاضلون فيه على حسب مقادير عقولهم ومعرفتهم بربهم ، وشدة اجتهادهم في السبق بالأعمال الصالحة إليه ". ابن بطة ، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد العكبري ، الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، دار الراية " الرياض = 1988م " مج2/840. ويرتبط العمل بالإعتقاد في كل التصورات بصورة عامة ، حيث يشكِّل أرضيته

فالمعرفة في التصور القرآني متساوقة ومنسجمة مع تكوين الإنسان وطبيعته، فهو مضطر في تكوينه مجبر فيه ، ولكنه مخير في عمله بين الفجور والتقوى ، محاسب عليه. فكذلك المعرفة عنده إما أن تكون مكتسبة بإرادته وبقدرته التي أودعها الله تعالى فيه ، كالعقل والحواس ، وإما مضطر إليها ، بأن أودعها الله تعالى فيه من غير إرادة منه ولا اختيار.

فإن تحدد الإطار المعرفي للسنن الإلهية بما تقدم من عرض ، ينبغي تذييل ذلك بالنماذج التي تبين تطبيقاتها. ولكن لما كانت أهمية هذه السُّنن قد برزت بالنُقلة في المنهج المعرفي بمجيء الرسالة الخاتمة ؛ والتحول إلى النظام المعرفي الاستنباطي ، فإنه ينبغي التعرض أولاً وبشيء من التفصيل لهذا الأسلوب المباشر لتحصيل المعرفة عن طريق الرسل عليهم السلام ، ليتبين دور هذا المنهج في تأسيس أسلوب المعرفة المكتسبة عن طريق النظر والإستدلال ، والذي لابد من تخصيصه ببحث آخر مستقل.

ثانياً: البيان الإلهي المباشر للمعرفة:

قال تعالى:(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) إبراهيم آية:4".

وقال النبي(ε):"مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ "[1].

1- المعرفة عن طريق الأنبياء والرسل(عليهم السلام)

فالمعرفة كانت مباشرة عن طريق الرسل ، كما تقررها الآية ، وللناس منها ثلاثة مواقف ، كما يقرره الحديث. وقد حاول الإنسان منذ فجر تاريخه أن يتطلع إلي المعرفة بما أودع الله تعالى فيه من قوة وقدرة على ذلك. ولكن جرت سُنة الله أن تتم المهمة المعرفية للإنسان عن طريق بعث الأنبياء وإرسال الرسل ، على حسب مقتضى التطور الفكري للبشر ، لبث المعارف بشتى أنواعها ومجالاتها والتي تدور أساساً حول تعريف الإنسان بربه عن طريق تعريفه بنفسه وما يحيط به من الكون والحياة وتبصيره بالمبدأ والمعاد. أي تعريفه بالإله الحق وصفاته وأفعاله المتجلية في الكون ونظامه ، ثم الحقائق المتعلقة بتلك المعرفة الخادمة لها كمقاييس الخير والشر والقيم ومعايير الحق والباطل ، ووضع الشرائع وتقرير قواعد الحلال والحرام التي تنظم السلوك الواعي للإنسان ليتحدد بذلك مصيره.

قال تعالى:(**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**) "النحل آية: 36" فالطاغوت رمز للباطل الذي لا حقيقة له ولا قرار ؛ والله هو الحق الباقـي:(**ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**) "الحج آية: 62 " "لقمان آية:30"

قد يكتسب الإنسان بعض معارفه عن طريق التجربة والممارسة ، وبالتفكر والتأمل في الآفاق والأنفس ، إلا أن هذه الطريقة مع أنها في حاجة إلى وقت أطول في تحقيق ذلك فهي لا تجيب عن كثير من الأسئلة المعرفية المهمة التي تدور في

الفلسفية ، ولكن لما كان الإسلام قائماً على تصور صحيح للكون والحياة فإنّ العمل على مقتضى التصور الإسلامي يقوم على أساس فلسفي سليم منهجياً ، لذلك تدفع النصوص الشرعية بالمسلم إلى تصريف عمله كله إلى الله تعالى بتوجيه القصد إليه تعالى حتى لا يفقد الصفة الشرعية ، والقاعدة العامة هي:" **إنما الأعمال بالنيات** " الحديث.

[1] البخاري: كتاب العلم

ذهن الإنسان وخلده ، مثل المبدأ والمعاد ودور الإنسان في الحياة. بل حتى حقائق الحياة من حوله والتي يتمكن من التعرف عليها فإنه لا يستطيع تفسير الكثير من الظواهر المتعلقة بها !

بمعنى أن العقل الإنساني المجرد عن الوحي الإلهي وإن تمكن من معرفة طريقة عمل الأشياء وكيفية وقوعها فإنه عاجز عن تفسير حقيقة ذلك ، كما هو عاجز عن تفسير السبب في وقوعها على أنماط بعينها دون سواها. وذلك يعني أن المعرفة العقلية يمكن أن تحدثنا عن كيفية عمل الشيء ولكنها لا تستطيع أن تحدثنا عن سبب وجود الشئ نفسه ، ولا أسباب عمله على نحوٍ دون سواه. وهذا يفسر أنّ مهمة العقل محصورة في الشاهد ، ودوره الأساسي يتمثل في تيسير الحياة لا تفسير الوجود ، الأمر الذي اقتضى بعث الأنبياء وإرسال الرسل.

2- أسباب بعثة الأنبياء والرسل (صلي الله عليه وسلم)

ترجع أسباب تعاقب الأنبياء والرسل لأداء المهمة المعرفية بصورة أساسية إلى سبب جوهري ألا وهو التباس الحق بالباطل ، وانحراف الناس عن صراط الله المستقيم. وقد جعل الله ذلك سُنة إلهية ثابتة على مستوي الفكر الإنساني "المعنوي"، كما هي سُنة على مستوي التدافع "المادي" في واقع الحياة. فكلما تم التمييز بين الحق والباطل عن طريق الأنبياء والرسل ، لا يلبث أن يعود الالتباس من جديد في أذهان الناس وعقولهم مما يقتضي تجدد المهمة المعرفية واستمرارها. فلولا ذلك لكفى الناس نبيٌ أو رسول واحد. ثم إنه لما كان عدد الأنبياء أكبر من عدد الرسل في الواقع ، إذ كل رسول نبي وليس العكس ، فإن ذلك يُفسّر أن الباطل بمختلف صوره وأشكاله أكثر اختلاطاً والتباسا بالحق من التباس الحرام بالحلال. وبمعنى آخر إن حاجة البشرية إلى المعرفة عبر التاريخ كانت أكبر من حاجتهم إلى التشريع. وذلك ما يؤكده قول النبي الخاتم (صلي الله عليه وسلم): عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ" الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ "[1].

لم يرد عنه (صلي الله عليه وسلم) مثل هذه العبارة في الحق والباطل ، لأنّ الحق إنما ينبغي أن يعلو شرعاً ولكن كوناً[2] ينازعه الباطل في ذلك ليبقى الإبتلاء قائماً ، رغم أنّ الباطل لن يصمد في مواجهة الحق طويلاً:(**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً**) "الإسراء آية : 81".

ويقع التباس الباطل بالحق بصور مختلفة ولأسباب مختلفة أيضاً. وقد ضرب الله تعالى مثلاً مادياً لبيان هذه الصور في كتابه الكريم ، فقال تعالى:(**أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ**) "الرعد آية:17".

لقد بيّن الله تعالى الصراع بين الحق والباطل في المبادئ والقيم بأمرين ماديين، الماء والنار وهما متناقضان ولكنهما يؤديان مهمة واحدة "تنقية الخبث" لإثبات أنّ "الثنائية" في الأشياء سُنَّة عامة وقانون ثابت على المستويين: المادي

---

[1] البخاري: كتاب البيوع .

[2] إن مفهوم " الكوني " و " الشرعي " فكرة قديمة في الفكر الإسلامي ، ومنها نشأت فكرة القضاء المبرم والقضاء المعلّق ، إشارة إلى دور الإنسان في حركة السُنن الإلهية ، ويبدو أنّ المرشد لهذا التصنيف هو الآيات القرآنية نفسها. وقد أورد أبو طالب المكي في " قوت القلوب مج1/259-260 " فكرة الكوني والشرعي باعتبارها أسلوباً لدرء شُبه التعارض في كتاب الله الكريم ، وأرجع الفكرة برمتها من الناحية التاريخية إلى حسن البصري ، ولكن يبدو أنها أخذت شهرتها كمنهج عام لفهم العلاقة بين فعل الله تعالى من وراء المنظور ، وبين فعل العبد الذي يثبت له الإرادة والاختيار ثم الجزاء ، عند شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، حيث تعرضا بصورة شاملة لمفهوم الكوني والشرعي في أفعال الله مثل الإرادة ، والمشيئة ، والأمر ، والكلمات ، والهدي ، والجعل والاستطاعة ... الخ.

والمعنوي.كما أشار الله تعالى بهذين المثالين إلى أمرٍ آخرَ مهمٍ وهو أنّ الأمور المتقابلة تؤدي عادة مهمة واحدة على مستوى النتائج لصالح الإنسان.

لهذا السبب كانت المهمة المعرفية تتم مباشرة عن طريق الوحي الإلهي بإرسال الرسل للفصل بين الحق والباطل ، كلما اختلط على الناس الأمر ، وقد تجلت المعرفة المباشرة بأقصى صورها لآدم عليه السلام ، ثم تتابع الأمر حتى مجيء خاتم الأنبياء والرسل محمد (صلي الله عليه وسلم) ، قال تعالى:(**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهـــا**) "البقرة آية: 31" ، وقال تعالى:(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) "إبراهيم آية :4". وهذا البيان لا يكون في مجال واحد، وإنما يكون في مجالات مختلفة ، وعلى مستويات متعددة كما يلي:

3- مجالات البيان المباشر للمعرفة

على أنّ صور البيان المباشر للمعرفة عن طريق الأنبياء والرسل ، تختلف موضوعات تعلقها ،كالتعريف بالله تعالى وملائكته ورسله ، ووضع الشرائع ، أي قواعد الحلال والحرام والأمر والنهي ، ووضع قواعد الأخلاق ببيان معاني الخير والشر والمنكر والمعروف ووضع الأسس العلمية التي بها يتمكن الإنسان من التمييز بين الحق والباطل والصالح والطالح من الأعمال. وجملة هذه الموضوعات يمكن تصنيفها ، بالنظر إلى طبيعة المجال المعرفي ، إلى مجالين:

المجال الأول: بيان حقائق الغيب المطلق ، كوحدانية الله وصفاته وأفعاله ، ومعرفة رسله من الملائكة، ومعرفة أحوال القيامة والحشر، والجنة والنار وأحوال الناس فيهما ، ومجال الغيب النسبي كمعرفة أحوال الأمم الغابرة وما كان فيهم من فعل الله وفق أعمالهم عبرة وعظة للأجيال في التاريخ. ويتعلق بهذا الجانب أيضاً بيان المبدأ و غاية الحياة والمصير.

وأكثر ما اهتم به الرسل عليهم السلام في هذا الجانب هو إثبات التوحيد ودفع الشرك بنوعيه: الظاهر الذي يفضي إلى الطاعة المطلقة للمخلوق دون الخالق فتتبدد طاقة العباد ، والشرك الخفي الذي تتولد عنه قناعات باطلة ، وتصورات خاطئة ، فيفضي إلى تفسير باطل لحقائق الوجود. وهذا الأخير هو الأخطر في نظر القرآن لأنّ أثره سيبقى مع الأجيال.

في الجملة يقع الالتباس هنا بصور مختلفة كالإلحاد والإشراك وغيرهما ، فيبعث الله رسله لبيان الحق في ذلك ، مع تزكية النفوس وتطهيرها من المعاصي ، قال تعالى:(**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)** (الأنبياء آية: ۝(25)) وقال تعالى:(**وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**) " النحل آية: 51" وقال تعالى(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**) "الشورى آية: 11".

فهذه الآيات توضح المنهج المعرفي في بيان الحق وإظهاره، ودحض الباطل وزهقه في حق الله تعالى، وهي الرسالة التي جاءت بها عامة الرسل لتأسيس التوحيد وبناء الأخلاق والقيم. وعند خاتم الأنبياء والرسل (صلي الله عليه وسلم) قد اتخذ هذا المنهج منحاً تطورياً ليشمل ، إلى جانب التوحيد والتزكية، أسلوباً جديداً في بث المعرفة شاملاً، موضوعاً ومنهجاً. فمن حيث الموضوع، فقد احتوت الرسالة الخاتمة من المعارف كل ما من شأنه أن يحقق مصلحة الإنسان في الدنيا وسعادته في الآخرة، كما عبر عنه قوله تعالى:(**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**) "الأنعام آية: 38"

أما من الناحية المنهجية فقد دعا إبراهيم (عليه السلام) لهذه الأمة بأصول معرفية عامة:(**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) "البقرة آية: 129" ، فكانت الإجابة ،

وبدأت الرسالة الخاتمة بقوله تعالى:(**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(1) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ(3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5)**) " العلق آية: 4،3،2".

يفصِّل الله تعالى في هذه الآيات ما مضى ذكره من خصائص المعرفة في التصور القرآني:

أولاً: إنه تعالى قد جمع بين المعرفة والأخلاق ، حيث تتم إلى جانب تعليم الكتاب والحكمة ، تزكية النفوس ، كما أن القراءة تكون باسم الرب سبحانه وتعالى. أي أن المعرفة هنا شاملة لكنها ليست مطلقة ، بل هي معرفة منضبطة بالقيم والأخلاق والشرع في نتائجها وأهدافها ، والكتاب والحكمة أحدهما مصدر المعرفة والآخر وسيلتها.

نقل القرطبي عن الإمام مالك قوله: الكتاب: القرآن ، والحكمة : المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم الذي هو سجيّة ونور من الله تعالى. ونقل عن قتادة قوله: الحكمة: السُّنة وبيان الشرائع. وقال ابن كثير: يزكيهم ، أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية. ونقل عن ابن عباس قوله: يطهرهم يعني طاعة الله والإخلاص[1].

ثانياً: إنّ التصور القرآني قد جمع بين الخَلْقِ والمعرفة من حيث وحدة المصدر ، أي أنّ الله تعالى كما أعطى الإنسان خَلْقَه فهو الذي يلهمه بالمعرفة ، والوسيلة إليها ، لذلك كان أول ما أُنْزِلَ من القرآن هو:(**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**) الذي ختمه بقوله:(**عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**) . وقال في موضع آخر:(**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُـــرُونَ**) "النحل آية: 78".

وهذا صحيح حتى في حق الرسل "عليهم السلام" ، إذ منّ الله تعالى بذلك على نبيه (ε):(**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمـــــًا**)[1] "النساء آية: 113" ،كما منّ على أمته (ε) بقوله تعالى:(**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**) "آل عمران آية: 164". وعلى سائر البشر بقوله تعالى:(**وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) "النحل آية:78".

ثالثاً: بيد أن المعرفة من الله تعالى ، مصدراً ووسيلة ، إلا أنه يجب اتخاذ الأسباب من جانب الإنسان في تحصيلها إذ يقول الله تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم):(**اقْرَأْ**) التماساً للأسباب وتعليماً للأمة في الوقت الذي يقرّر سبحانه استحالة امتثاله)(صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر في تلك اللحظة:(**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**) "العنكبوت آية:48" ، بل حتى في حق ذاته العلية يَرِدُ ذكر الوسائل ،كقوله تعالى:(**الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**) ، كانت وسيلة التعليم هي القلم مع أنه تعالى قال في كتابه:(**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**) "يس آية:82".

وبهذا يعلمنا الله تعالى طريقتين في كيفية تصرفه في خلقه: طريقة مباشرة ، أي قانون (**كُنْ فَيَكُونُ**) ، وطريقة أخرى هي اتخاذ الوسائل والوسائط لحكمة هو يعلمها وذلك هو قانون:(**عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**) و(**خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ**) "ص آية:71" وهو تعالى القادر على أن يخلق بشراً من غير مادة. بل قد جعل الله تعالى لعنصر الزمن دوراً في فعله ، فقال تعالى:(**إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**) " الأعراف آية: 54".

---

[1] القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتاب العربي " بيروت 1952م " مج131/2.
– ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ، تفسير القرآن العظيم ، مكتبة دار السلام " بيروت 1992م " مج197/1.

[1] ينبغي التفطن إلى أن أسلوب نقل المعرفة إلى الأنبياء والرسل " الوحي " مختلف عن الوسائل المعتادة لتلقي المعرفة عند سائر البشر.

والمنهج الأمثل للعبد في التعامل مع هاتين الطريقتين هو أن لا يخلط بينهما في حق الله تعالى ، بأن يجعل قانون (**كُنْ فَيَكُونُ**) في موضع القانون الآخر(**عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**) ، بدعوى أن الله قادر على ذلك ، لأنه تعالى هو الذي أراد أن يفهمنا الطريقتين ، وإلا لكفى قوله تعالى:(**إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) "البقرة آية: 20" وأمثاله.كما أن الخلط بين الأمور المتمايزة يفضي إلى سوء فهم للحقائق المعرفية "كما سيأتي تفصيله".

وأما العبد في حق نفسه فإنه لابد من الجمع بين الطريقتين في العمل[1]، بأن يأخذ بالأسباب ثم يتوكل. أي يجمع بين ما يراه في الشاهد من وسائل وأدوات لحصول النتائج وتحقيق الأغراض ، ويرفع الأمر إلى الخالق سبحانه فيما غاب عنه من حقائق ، وذلك هو ما أمر الله به عباده ، ابتعاداً عن طرفي النقيض إفراطاً أو تفريطاً. وهذا هو المنهج الأمثل في التعامل مع السُّنن الإلهية.

وبهذا يتبيّن أنّ الأسلوب المعرفي قد اتخذ منحىً جديداً في الرسالة الخاتمة ، شمل الموضوع والمنهج ، كما يتبين أنّ الإنسان كان في ضلالٍ عن الهدف ، وفي جهلٍ عن كثير من الحقائق العلمية حتى أنقذه الله من ذلك وأكرمه بمعرفة نفسه وبيّن له الفرق بين الخالق والخلائق ومنحه الإيمان به تعالى استجابة لدعاء إبراهيم ט:(**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**) "البقرة آية:151" وفي سورة الجمعة:(**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**) "2". فالنبـــي (صلي الله عليه وسلم) كان سبباً في نشر المعرفة الحقة بين الأميين وهم سبب في نقلها إلى سائر البشر ، والبيان المعرفي هنا شمل أصول المعرفة كلها ولم ينحصر في جانب معين، وهذا ينقلنا إلى:

المجال الثاني: وهو وضع المنهج القويم للإنسانية ، وذلك ببيان السُّنن الكونية والشرعية وقواعد الأخلاق التي بها يتم تهذيب السلوك الإنساني في الحياة ، كتمييز المأمور عن المحظور ، والصالح عن الطالح في الأعمال ، وتمييز الصدق عن الكذب في المقال ، والمعروف عن المنكر في الأخلاق. وكذلك بيان أصول المعرفة التي تساعد الإنسان في تحسين أداء مهمته في الحياة ، بتسخير الأشياء لمصلحته في مختلف المجالات ، لتكون وسيلة إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى.

وهذه الصورة من البيان تتفرع إلى نوعين: نوعٌ يتعلق بتهذيب السلوك الإنساني وتزكيته ، وهي قواعد الأخلاق بمفهومها العام الشامل للإيمان والقيم ، وهنا حرية الإنسان وإرادته وقدرته عناصر مهمة فيه ، نظراً لترتب الجزاء والحساب على البيان ، وليتحقق الكسب الطوعي للإنسان ، كما قال تعالى:(**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ**) "البقرة آية: 256" ،وقوله تعالى:(**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً**) " الإسراء آية:15".

ونوعٌ آخر من البيان يتعلق بالسنن الكونية أي بقواعد المعرفة وأصول البحث العلمي على مستوى الكليات والقواعد ،كما في قوله تعالى:(**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**)) "الذاريات آية :49" وقوله تعالى:(**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ**

---

[1] قال العلامة بديع الزمان سـعيد النورسـي "ت-1960م " ، وهو يبيّن ضـرورة التوفيق بين الإعتقاد والأخذ بالأسـباب: " واعلم أن لكل من هاتين الدائرتين مقاماً معيناً وأحكاماً مخصـوصـة، فلابد أن يعطى كل حقه. فمن نظر في مقام دائرة الأسـباب بطبيعته ووهمه وخياله ومقاييس الأسـباب إلى دائرة الاعتقاد اضـــطر إلى الاعتزال – يقصـــد " الحتمية " أي تعطيل قدرة الله تعالى في تلك الأســـباب – ، ومن نظر من مقام الاعتقاد ومقاييســه وبروحه ووجدانه إلى دائرة الأسـباب أنتج توكلاً تثبيلياً – يقصـد الجبرية – وتمرداً في مقابلة المشـيئة النظامية " ثم أضـاف " لكن يلزم على العبد وهو في دائرة الأسباب أن لا يهمل الأسباب بالمرة لئلا يكون متمرداً في مقابلة النظام المودع بحكمته ومشيئته تعالى ، لأن التوكل في تلك الدائرة عطالة ". راجع كتابه: إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز ، ط2، طبع شركة سوزلر القاهرة 1994م ،ص29/28.

إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُـون)" الأنبياء آية :7" وقوله تعالى:(**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ**) "يوسف آية:111"، وقوله تعالى:(**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ**) "القصص آية:88". وقوله تعالـى: (**وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ**) "الأنبياء آية:30".

فهذه نماذج لأصول معرفية بيّنها الله تعالى للبشرية مباشرة ، إلى جانب تعريفها بالخالق وشرائعه ، لتكون سنناً تهدي الناس إلى الله تعالى في مختلف مجالات الحياة. وليس لإرادة الإنسان هنا دور في وضع هذه السُّنن أو السيطرة عليها ، إلا من حيث البحث عن مقتضياتها ومعرفة أحوالها وشروطها ، ثم توظفيها لمصلحته ليزداد علماً وكسباً.

وجاءت الإشارة إلى هذين النوعين من البيان في قوله تعالى:(**يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**) ، كما وردت مراراً في القرآن.

وهذه الآيات دليل على خاصيتين يتميز بهما التصور القرآني للمعرفة كما سبق ذكره: الجمع بين النقل والعقل من ناحية (**الكتاب والحكمة**) ، وبين المعرفة والأخلاق من ناحية أخرى(**ويزكيهم وَيُعَلِّمُهُمْ**). كما أنها ترشد إلى أهداف العلم في الإسلام وأغراضه وهي: معرفة النفس الإنسانية من أجل تطهيرها وترقيتها نحو باريها ، روحياً ومادياً ، واكتشاف الطبيعة وقوانينها من أجل استغلالها الأمثل لمصلحة الإنسان.

4-كيفية تعلق السُّنن الإلهية بالمعرفة المباشرة

ولما كانت السُّنن هي فعل الله تعالى في خلقه الذي ينبغي معرفتها من خلال الصورة الأولى من البيان ، فإنها تتعلق بالصورة الثانية بنوعيها ، الكوني والشرعي. فتتعلق بالنوع الأول "الشرعي" من خلال إرادة الإنسان نفسه ، فيظهر إطرادها بطريقة مطابقة لطبيعة النفس الإنسانية ومرونتها وذبذبتها ، كما عبّر عنها في التناسب بين المخالفات والمعاصي ونتائجها قولُهُ تعالى:(**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ**) "المنافقون آية:3" وقوله تعالى:(**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ**)" يونس آية: 74"

وفي سنن الطاعات قال تعالى:(**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**)[1] "الأعراف آية:96 ". وفي سنن التغيير الاجتماعي جاء قوله تعالى:(**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**) "الرعد آية:11". وفي سنن الأخلاق جاء عن النبي (صلي الله عليه وسلم):" إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ صِدِّيقًا وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّاباً"[2].

الخاصية الجوهرية في كل السُّنن المتعلقة بهذا النوع هي أنّ نتائجها ليست فورية وإنما هي متراخية عن مقتضاها مع عنصر الزمن بحيث قد يخفى نظام اطرادها على الناس . فالطبع على القلوب لم يقع من أول وهلة ترفض فيها الدعوة، وإنما

---

[1] قال ابن قيم الجوزية في مضمون هذه السُّنة وهو يتحدث عن الآثار العاجلة للمعاصي:" منها حرمان الرزق ...، وكما أن تقوي الله مجلبة للرزق ، فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي. ومنها تعسير أموره عليه ، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه ، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً ، فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً ، ويا لله العجب ! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى ؟ ".شمس الدين محمد بن أبي بكر " 691-751هـ "، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيرت، 1984م ، ص60-61.

[2] مسلم: كتاب البر والصلة.

ترتب ذلك بالعناد والإصرار على رفض الدعوة وتكذيب الرسل ،كما أنّ الكاذب لم يكتب كذّاباً عند الله تعالى من أول كذبة ، وإنما صار كذلك بسبب الإصرار والإستمرار ، وهكذا بقية الخصال وهذا يعكس رحمة الله بعباده ، وهو موضوع لسنن الأنفس.

وتتعلق السُّنن الإلهية بالنوع الثاني ، أي التي تنتفي فيها إرادة الإنسان ، فيظهر إطرادها بصورة تناسب طبيعة هذا الوصف ، أي بشكل صارم ووقتي كارتباط غليان الماء بدرجة حرارة مئوية معينة ، وارتباط الداء بالدواء ، والسالب بالموجب ، في الإفضاء إلى نتائجها عند إكتمال الشروط وإنتفاء الموانع. وهذه الأمثلة تدخل تحت تلك الأصول العامة للسنن التي ورد ذكرها في النوع الأخير من البيان الإلهي للمعرفة مثل قانون الزوجية على مختلف مستوياته ، وقانون الحركة الداخلية للأشياء ، أي صراع المتناقضات المفضي إلى تغيّر بنية الشيء باستمرار ، وهو قانون الفناء والهلاك كما يسميه القرآن. وقد بيَّن النبي (صلي الله عليه وسلم) بعض النماذج من هذه الأصول ، حيث ورد عنه (صلي الله عليه وسلم) في الحديث : "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ "[1].

ويقع الخلط في كل هذه الصور على مستويين: خلط الشرعي بالكوني من ناحية ، وخلط الحقيقة العلمية بالوهم من ناحية أخرى. والأخير هو الأهم لأنّ القرآن قد أثار الإنتباه إلى ضرورة التمييز بين الحق الموضوعي والوهم ، أو الذاتي الذي يصفه في أكثر الأحوال بـ"هوى النفس" ، كما يقابل أحياناً الحق بالظن الذي لا يغني من الحق شيئاً:(**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُـدَى**) "النجم آية:23"

وهذا دليل على أنّ المعرفة المعتمدة في التصور القرآني إنما تُبْنَى على اليقين القائم على الدليل ، لا على الظنون والأوهام.

والمقصود بالكوني هنا هو الوجود الموضوعي للحقيقة بصرف النظر عن الوعي الإنساني له. فالله تعالى هو الحق ، وهو موجود بصرف النظر عن وعي الإنسان بذلك ، سواء على هدى أو ضلال. وكذلك أفعاله تعالى في الوجود حقائق موضوعية كائنة: منها ما اهتدى إليه الإنسان وتصوره على حقيقته عن طريق البيان الإلهي ، كمعرفته جريان الشمس إلى مستقرها على قدر ، ومنها ما يتصوره بغير ذلك ، إعتماداً على مداركه الذاتية ، كصغر النجوم البادي للعين ، ومنها ما لم يهتدِ إليه الإنسان مطلقاً حتى الآن.

أما الشَّرعي فهو ما تعلق بالأمر والنهي والتكليف ، والوعي الإنساني شرط لاعتباره ، فإذا فُقِدَ ارتفع الاعتبار ومن ثم ارتفع التكليف. لذلك كان المنهج المعرفي الإلهي أكثر تفصيلاً في بيان السُّنن الشرعية ممثلة في الأوامر والنواهي على مستوى الأصول والتفريعات ، كما هو معروف في الفقه وأصوله ، أما السُّنن الكونية فكان على مستوى الأصول الكلية والنماذج. وبهذا تلخصت أصول البيان الذي جاءت به الأنبياء والرسل في أمرين:

- وضع التصور الصحيح عن الوجود وذلك بالتمييز بين الحق والباطل في حق الله تعالى
- والأمر الثاني هو وضع المنهج القويم ببيان المأمور من المحظور ، والحسن من القبح في الأعمال والخير من الشر في الأخلاق.

وتعتبر هذه المهمة المعرفية التي تمت عن طريق الرسل عبارة عن إخراج للناس من ظلمات الجهل والضلال إلى نور المعرفة والهدى كما يقررها قوله تعالى:(**الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى**

---

[1] البخاري ، كتاب الجمعة .

صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيـــدِ) "إبراهيم آية:1" وقوله تعالى:(**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)** "الحديد آية:9".

فعملية الإخراج من الظلمات هنا تمّت بتلاوة آيات وهذه صفةٌ للمنهج المعرفي في الرّسالة الخاتمة التي جمعت بين النقل والعقل ، والمعرفة والأخلاق ، وبين الإنزال والتلاوة[1]:(**رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**) "الطلاق آية:11"

بينما في حق موسى ()عليه السلام يذكر الله تعالى أن إخراج بني إسرائيل من الظلمات إلى النور تمّ باظهار الآيات وإبرازها ، لا بتلاوتها:(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ)** "إبراهيم آية:5". وهذا يعكس تباين المنهج المعرفي بين الرسالتين على مستوي الوسائل والتفصيلات ، دون الكليات:(**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ**) " المائدة آية:48".

5- الإطار المعرفي للمعجزات

وفي سبيل إخراج الناس من الظلمات إلى النور جاء تأييد الرسل بالآيات البينات ، المادية منها أو المعنوية كمعجزة القرآن الذي يتلى. وهذان النوعان من المعجزات إنما يعكسان منهجين مختلفين للمعرفة ،كما تمت الإشارة إليهما ، على مستوى التفصيل لا على الأصول. فالنوع المادي يوضح للبشرية أن السُّنن الكونية وراءها خالق مدبر لأمرها حتى لا يُظنُ أنها تعمل بذاتها فتصبح محلاً للتقديس والعبادة دون موجدها ومعطي نظامها.

أما النوع المعنوي "القرآن" المتلو ، فقد خاطب الناس بلغتين:

الأولى: لغة حقائق الوجود الذي تحكمه السُّنن ممثلة في الأنفس والطبيعة والوقائع التاريخية:(**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)** "الغاشية آية 17 ،18" (**قُلْ سِيرُوا فِي الأرض فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** "العنكبوت آية: 20"،:(**قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ**) "الروم آية:42".

فالسؤال المعرفي هنا هو "كيف" وليس "لِمَ" ، لأنّ الغرض منه كشف سنن الله في الخلق لينقاد بها الناس إلى الإيمان بالخالق ، لا معرفة الغاية من خلق الأشياء التي سُخّرت للإنسان. وهذه من أهم خصائص التصور المعرفي في القرآن كما سبق ذكرها. وكل هذه الآيات دليل على أنّ الله تعالى قد أودع في الإنسان القدرة على إدراك سنن الله تعالى في خلقه بعقله ، هذا جانب ، ومن من جانب آخر فإنّها تدل على وجود تلك السُّنن في الواقع ، وإلا لما كان هذا التوجيه الإلهي بالنظر !.

أما عن الإنسان فلابد من إجابته على سؤال "لِمَ" في حق نفسه، أي بيان الغاية من وجوده، فقال تعالى:(**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ)**[1]الذاريات آية:56".

---

[1] للتلاوة هنا معنىً معرفي خاص وهو تحويل المعرفة النظرية إلى عمل ملموس أو العمل على وفق المعرفة ، كما بينه الراغب الأصـــفهاني في "المفردات " بقوله:" والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة ، تارة بالقراءة وتارة بالارتســام لما فيها من أمر ونهي وترغيب وترهيب ، أو ما يتوهم من ذلك وهو أخص من القراءة... " ثم قال:"وإنما يقال في القرآن في كل شـــيء إذا قرأته وجب عليك إتباعه .. أما قوله تعالى:(**يتلونه حق تلاوته**) فإتباع له بالعلم والعمل ". المفردات في غريب القرآن ، مصدر سابق ص74 ، مادة " تلى ".

[1] التفسير المشـهور عن ابن عباس لهذه الآية هو:" خلقهم ليعرفوه ". ولكن فسـرها شـيخ الإسـلام ابن تيمية باعتبار أن اللام في " ليعبدون " لام تعليل ، وليســت اللام الذي يســميها النحاة بلام الصــيرورة ، وليســت لام عاقبة. ويقول:" لام التعليل تفيد العلة الغائية ، وهي متقدمة في العلم والإرادة ، متأخرة في الوجود والحصـول " وبناء على هذا يقرر ابن تيمية أن الإرادة في كتاب الله على نوعين تقع في أربع مراتب بحسـب إسـتلزام

واللغة الثانية: هي لغة الخطاب التي تُعبّر بالتأويل عن تلك الحقائق والوقائع والسنن ، قال تعالى:(**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا**) "مريم آيـة:97"، وقال تعالى:(**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً**) "الإسراء آية:106".

ولسان النبي (صلي الله عليه وسلم) الذي يُسّر به القرآن هو اللسان العربي المبين ، أي أنّ الإرادة الإلهية اتخذت من لغة العرب وعاءاً أو أداة للإخبار عن ذاته العلية وللتعبير بها عمّا أودعه في الكون من الحقائق. وعليه يتوقف فهم الخطاب القرآني من هذا الوجه على معرفة قواعد لغة العرب الأميين وفنون خطابها[1].

وبهذين اللغتين تظهر أهمية الخاصية المعرفية للإنتقال المستمر من الغيب إلى الشهادة ، أي تأويل ما أخبر القرآن من حقائق بحصولها واقعاً. وبهذا يمثل القرآن طوراً معرفياً جديداً تُؤسس فيه المعرفة والإيمان على تلاوة النص وقراءة سنن الله في خلقه[2]. أي يبيّن للناس الجانب العقلي للمعرفة إلى جانب النص المباشر المطابق ،كما توضحه النصوص السابقة ، وهو أحد وجوه الإعجاز القرآني[3].

وهكذا تدخل المعجزات ضمن منظومة التصور القرآني للمعرفة.

وفي ختام هذا العرض للبيان الإلهي المباشر للمعرفة نخلص إلى السؤال التالي:

إذا كان المنهج المعرفي ، على حسب ما جرت به سُنة الله ، أن يتعاقب الرسل والأنبياء لهداية البشرية عن طريق البث المباشر للمعرفة ، فكيف به الحال وقد انقطعت هذه الطريقة بمجيء خاتم الأنبياء والرسل (صلي الله عليه وسلم) بالرسالة الخاتمة ؟

الإجابة المقنعة لهذا السؤال نجدها في آيتين ترشد إحداهما إلى مصدر المعرفة، والأخرى إلى وسيلة تحصيلها ، أما الأولى فقوله تعالى:(**أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**) "العنكبوت آية:51"

وأما الآية الثانية فقوله تعالى:(**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمْ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً**) " النساء آية:83".

إذن في الكتاب كفاية ، ثم إن الله تعالى بفضله ورحمته أنقذ البشرية من أن يكونوا جميعاً جنوداً لأبليس ، في الخلط بين الحق والباطل ، وذلك بإنزال الكتاب ، ثم بإرشاد الناس لأخذ المعرفة من أولي الألباب ، وهم أهل الاستنباط ، ورثة

وقوع المراد وعدم اســتلزامه: إرادة دينية شــرعية ، وأخرى إرادة كونية ، ليخلص إلى قوله:" وإذا كان كذلك فمقتضـــى اللام في قوله تعالى:(**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) هذه الإرادة هي الإرادة الدينية الشـــرعية ، وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع ، والمعنى أنّ الغاية التي تجب لهم وترضـــى لهم والتي أمروا بفعلها هي العبادة، فهي العمل الذي خلق العباد له ". مجموعة الرســائل الكبرى ، دار إحياء التراث العربي " بيروت 1972م " ج2/ 75–78 "الرسـالة الرابعة:مراتب الإرادة ".هذا التفسير يحل المشـكل الذي يثور عند تفسـير الآية وهو: كيف خلقهم لعبادته وفيهم عصاة وكفّار ؟.

[1] راجع تفصيل هذا الجانب عرض الإمام الشاطبي في الموافقات مج64/2 ، طبع دار الفكر ، بشرح وتعليق عبد الله دراز.

[2] يقوم المنهج المعرفي الإسـلامي هنا على أسلوبين: أسلوب الإجتهاد لإيجاد تطابق بين السُنن الكونية وحقائقها الموضـوعية بحيث تفسر الظواهر بطريقة علمية موضوعية ، لا بالخرافة أو الصدفة . وهنا لا يتوقف الإجتهاد على الواقع وإنما يمتد لقراءة المستقبل واستطلاع المجهول وما يخفيه الغيب من حقائق ، بالإنطلاق من الأسس التي تحكم السُنن الإلهية كقوله تعالـــــــى : (**فاعتبروا يا أولي الأبصار**) لوضع النظريات والخطط الطموحة للأمة. والأسلوب الثاني هو: الإجتهاد لإيجاد تطابق معرفي بين الوقائع والحادثات وبين أحكامها الشرعية على مقتضـى السُنن الشرعية لينضبط الأسلوب الأول في غاياته وأهدافه بقواعد الشرع ، وهذا هو الإجتهاد الفقهي.

[3] راجع تفصيل أوفى لهذا الجانب من الإعجاز القرآني ، مالك بن نبي ، في كتاب " الظاهرة القرآنية".

الأنبياء. وهذا يعني قطعاً أن إنزال الكتاب وتلاوته بالمفهوم المعرفي ، يقومان مقام المنهج السابق ، أي أن الكتاب والقراءة هما المنهج المعرفي البديل ، وهذا يقرر نتيجتين مهمتين:

النتيجة الأولى: إنّ الكتاب "القرآن" مصدر عام شامل للمعرفة[1]، وتتحقق هذه النتيجة بتلاوة الكتاب ، أي بالقراءة والتدبر ثم العمل على مقتضى التصور الذي فيه.

والنتيجة الثانية: إن مهمة الأنبياء والرسل ، الذين كانوا سفراء بين الخالق والخلق في نقل المعرفة ، قد انتقلت إلى عامة الناس أو من ينوب عنهم في البيان المعرفي وهم العلماء .

وهكذا وقعت على عاتق البشرية مهمة إضافية للبحث عن الحق بانقطاع بعث الرسل ومجيء خاتم الأنبياء (صلي الله عليه وسلم). ولكن ما الوسائل والآليات التي تعين الإنسان للقيام بهذه المهمة ؟

لعل الإجابة عن هذا السؤال نجدها عند الأسلوب الثاني لاكتساب المعرفة في التصور القرآني ، أي أسلوب النظر والاستدلال ، وهو ما يمكن تسميته بـ "النظام الاستنباطي" الذي بيّن القرآن نفسه معياره وآلياته ليكون منهجاً للاستنباط المعرفي ما بقيت حاجة الإنسان إلى المعرفة[1].

المراجع :

1- أحمد حسن فرحات : سُنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول ، دار عمار،الأردن 1999م.

2- أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: مجموع الفتاوي ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ، السعودية .

- رسالة السُّنة في القرآن ضمن جامع الرسائل ، مطبعة المدني القاهرة 1969م.

3- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة ، عالم الكتب، بيروت بدون تاريخ .

4- أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، تحقيق: ابن الخطيب ، المطبعة المصرية، القاهرة 1398هـ.

5- بديع الزمان سعيد النورسي: إشارات الإعجاز في مظان الإعجاز ، دار سوزلر، القاهرة 1994م.

6- جمال الدين محمد بن أكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت 1956م.

7- حارث بن أسد المحاسبي: العقل وفهم القرآن، الدار الكندي، بيروت 1982م.

8- أبو حامد الغزالي: معيار العلم ، دار المعارف، القاهرة ، بدون تاريخ.

9- الراغب الأصفهاني:المفردات في غريب القرآن ، دار المعرفة ،بيروت ، بدون تاريخ).

- تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988.

10- سليمان الخطيب: أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، زهراء للإعلام العربي القاهرة ، بدون تاريخ .

11- سيد قطب: خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، القاهرة، 1983م.

12- عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة ، بدون تاريخ.

---

[1] لهذا قال الإمام الشـافعي:" فليسـت تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا في كتاب الله الدليل على سـبيل الهدى فيها " . فمفهوم الدليل عام ، لا يقصر على معرفة الحكم الشرعي، " الرسالة " ، تحقيق أحمد شاكر، ص20.

[1] قد تم بيان آليات هذا المنهج الاستدلالي العملي ، في بحث مستقل عنوانه " السُّنن الإلهية والبعد المعرفي للإنــزال والتنزيل في القرآن " نسأل الله أن يوفقنا في تقديمة للباحثين.

13- عبد الحميد البلالي: سُنة الله في ابتلاء الأمم، دار الدعوة، الكويت،1992م.
14- عبد الحميد صديقي: تفسير التاريخ ، دار القلم ، الكويت 1980م.
15- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال ، دار القلم ،دمشق 1993م.
16- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : المقدمة ، دار نهضة مصر، القاهرة 1979م.
- شفاء السائل وتهذيب المسائل ، دار الفكر ، دمشق 1996م.
17- عبد الكريم زيدان: السُّنن الإلهية في الأمم والمجتمعات والأفراد في الشريعة الإسلامية ، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993م.
18- عبد الله تليدي : أسباب هلاك الأمم و سُنة الله في القوم المجرمين ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت 1986م.
19- على بن محمد الجرجاني : التعريفان، دار الكتب العلمية، بيروت 2000م.
20- عماد الدين خليل: التفسير الإسلامي للتأريخ ، دار العلم للملايين ، بيروت .
21- ابن قيم الجوزية: شفاء العليل في مسائل القضاء و القدر والحكمة والتعليل، الحسينية ،القاهرة 1323هـ .
22- محمد الباقر صدر: السُّنن التاريخية في القرآن ، دار التعارف، بيروت 1989م.
23- محمد بن الجرير الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار المعارف، القاهرة.
24- محمد الصادق عرجون: سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ، الدار السعودية للتوزيع، جدة 1984م .
25- محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985م.
26- محمد قطب: حول التفسير الإسلامي للتأريخ ، المجموعة الإعلامية جدة ، بدون تاريخ.
27- محمد الكتاني: جدل العقل والنقل في مناهج الفكر الإسلامي، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1992م.
28- محمد بن علي بن عطية أبو طالب المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب، مؤسسة ابن خلدون للدراسات والنشر، عمان- الأردن 1990م.
29- أبو المُعين ميمون بن محمد: تبصرة الأدلة في أصول الدين ، طبع المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق 1990م.
30- ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة ، دار المعرفة ، بيروت بدون تاريخ .